جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية

د. باديس فوغالي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن الغرب الأوروبي الذي سام الشرق العربي مختلف ألوان الاضطهاد منذ تفكك الخلافة الإسلامية متدرجا في انتهاج أساليبه التوسعية قد نهض في بعده الحضاري على دعامتين أساسيتين هما:

الحضارة اليونانية الكلاسيكية، والكتاب المقدس. إذ بقدر ما كان يرمي إلي استعادة أمجاد المسيحية التي دحرتها الفتوحات الإسلامية علي مر قرون من الزمن، كان ولازال يؤمن بضرورة استرداد الهيمنة اليونانية في أبعادها الحضارية.

وإذا كان الفتح الإسلامي قد أتاح للأمم التي كانت تدين ديانات أخرى غير الإسلام ممارسة عقائدهم والتمتع بكامل الحقوق التي كان يحظى بها المسلمون الفاتحون، فإن الغرب المسيحي لما استعاد زمام الأمور عتى في الأرض فسادا علي الرغم من أن أصوله شرقية مادام قد تغذى من خامات الحضارة اليونانية، وتبني مبادئ الكتاب المقدس.

فالعلاقة إذا بين الشرق والغرب حسب تصوري لم تكن علاقة صدامية، ولا دموية في البدء لأن أصول الحضارة الغربية أساسا منبعها الشرق مهبط الرسالات.

وهكذا تطورت العلاقة بين الشرق والغرب وفقا للنوايا التي تبنتها في البدء الكنيسة في شكل تبشيري انتهج أساليب متعددة، وحين فقدت الكنيسة سلطتها علي الحياة السياسية الغربية تلقف المهمة العسكريون الذين مارسوا أساليبهم التوسعية وفق منطق الهيمنة الإستذماريةوالاستيطانية التي أذاقت الشعوب المستضعفة الويلات.

وقبل أن أنتقل إلي معاينة جدلية الشرق والغرب في الرواية العربية ممثلة في "قنديل أم هاشم " ليحي حقي" و(عصفور من الشرق) لتوفيق الحكيم مع الإشارة إلي روايتي (الحي اللاتيني) لسهيل إدريس و"موسم الهجرة إلي الشمال" للطيب صالح.

حري بي طرق مفهوم كل من الشرق والغرب مادام يشكلان مركزية الدراسة ولكن ليس من منطق جغرافي وإنما من منطق حضاري.

يقول ادوارد سعيد :إن الشرق هو " مجموعة الأقطار المنتشرة في آسيا وبعض الأقطار في إفريقيا مما يطل على حوض البحر الأبيض المتوسط, وبعض أجزاء من أروبا الشرقية) [i].

يتقاطع هذا التعريف مع التعريف الذي ورد في القاموس الموسوعي "لاروس",الذي حدده بأنه (أي.الشرق) : (آسيا وجزء من مصر و أروبا نسبيا باعتبار أروبا الغربية)[ii] .والمتأمل في مختلف التعريفات التي شملت مفهوم "الشرق" يلفيها محصورة في تمايز الديانات، و تباين المصالح.

لذلك يرى" قاسم السامرائي" في كتابه الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية أن الشرق :(اصطلاح ابتدعته أروبا لكل أرض وراء حدودها شرقا إلى اليابان، بيد أن هذا المصطلح بدأ يتزحزح عبر قرون ليقتصر في مفهومه العام والغامض أيضا على الشرق الأوسط وما في هذا الشرق من أديان، و ثقافات، أو حضارات *مختلفة*)[3].

لقد كانت الحضارتان الفارسية والرومية تمثلان الشرق والغرب قديما، وكانت بينهما صراعات دائمة تتنازع القوة والجبروت، وتمجيئ الحضارة العربية الإسلامية انتقل الصراع بين المسلمين والروم، ثم تحول هذا الصراع إلى صراع عقدي بين المسلمين، والصليبيين ليتواصل في صورة أخرى تجلت في الصراع بين العثمانيين والأوربيين، وهو الصراع الذي تولدت عنه فكرة الاستعمار الحديث الذي قام على الغلبة والهيمنة، وفرض النموذج الأوروبي والأمريكي على شعوب آسيا وإفريقيا[4].

أما الغرب فقد نعت بأنه تلك (الشعوب التي شاركت في الحروب الصليبية، والتي تعرف حاليا باسم بريطانيا، هولندا، بلجيكا، فرنسيا ، ألمانيا، إسبانيا، والبرتغال.

وهي دول تشترك في أحلاف عسكرية مع أستراليا وكندا والولايات المتحدة، وتشمل ما يعرف باسم الكتلة الرأسمالية، وأحيانا باسم الغرب). [5]

إن خلفية العلاقة إذن كانت مؤسسة على ذهنية التصادم والصراع وفق معادلة طرفها الأول تحكمه قوة استعمارية تريد فرض هيمنتها وسطوتها بأساليب الردع والإذلال ، أما طرفها الثاني فتحكمه قوة روحية مستمدة من التشبث بالقيم الإنسانية النبيلة في إبعادها الشرقية، غير أن هذه العلاقة وبعد أحداث 11 سبتمبر صارت تقلق الغرب أكثر، فاختلقت أسلوبا جديدا للتغلغل أكثر في كيان الشرق من خلال ماسمي الحوار الحضاري بين الشرق والغرب.

والذي يهمني في هذه الورقة ليس تفكيك وتشريح هذه العلاقة القديمة الجديدة إنما الذي يعنيني هو الحوار الثقافي العميق الذي تمثله بعض الروائيين العرب ممن عاشوا، وعايشوا الثقافتين الشرقية و الغربية قصد إجلاء صورة الغرب في ضوء بعض أعمالهم.

هؤلاء هم :

- توفيق الحكيم في روايته عصفور من الشرق الصادرة في عام 1937 .
- يحي حقي في قصته الطويلة قنديل أم هاشم [7] الصادرة عام 1944 .
- سهيل إدريس في روايته الحي اللاتيني الصادرة 1953.
- الطيب صالح في روايته " موسم الهجرة إلى الشمال الصادرة عام 1966 .

إن الفترة الممتدة بين صدور عصفور من الشرق وموسم الهجرة إلى الشمال، والمقدرة بحوالي 30 عاما أراها كافية لرصد العلاقة بين الشرق والغرب من جهة، وإبراز صورة الغرب من خلال العدسة الروائية

العربية، وكذا الموقف الفكري والجمالي إزاء هذه الصورة.

مفاصل تقاطع هذه الأعمال :

أ-البطل.

تتقاطع هذه الأعمال المنتجة عبر ثلاثين عاما في انتقاء شخصية البطل، فالبطل في كل هذه الأعمال جامعي مثقف من الطراز العالي.

فبطل عصفور من الشرق (محسن) يسافر إلى عاصمة فرنسا " باريس" لدراسة الحقوق فيقع أسير حب حسناء فرنسية تدعى (سوزي) تعمل بائعة تذاكر في إحدى أعظم مسارح باريس فيحلق في سماء الرومانسية المفعمة بالأحلام الشرقية، وحين يصحو على حقيقة هذه المرأة يستجمع كل قواه ويرحل نحو الأفكار الواقعية التي تشده إلى آفاق الشرق.

أمابطل (قنديل أم هاشم)فطالب من ريف مصر يخفق في الحصول على مقعد جامعي في بلده يدعى " إسماعيل" نشأ وترعرع على التقاليد الإسلامية الموروثة يسافر إلى "إنجلترا" لدراسة طب العيون فيتعرض إلى تأثير قوي من جانب الثقافة الغربية (الرواية ترصد تطورات هذا الشاب الروحانية في سلوكه الأخلاقي و الاجتماعي والفكري من خلال علاقته العاطفية بـــ ماري " البريطانية) [8]. لينتصر بعد حوار فكري عميق إلى ضرورة الانتصار إلى الثقافة الشرقية دون إغفال حتمية الأخذ من الثقافة الغربية.

بطل "الحي اللاتيني" مثقف لبناني يهاجر إلى باريس للحصول على الدكتوراه في الأدب العربي، فيقيم علاقة مع فتاة فرنسية يمارس من خلالها كل ما حرم منه في مجتمعه الأم بعيدا عن تلك الرقابة التي كان يفرضهاعليه مجتمعه.

ـــ بطل موسم الهجرة إلى شمال " مصطفى سعيد" يسافر بدوره إلى بريطانيا قصد الحصول على الدكتوراه , فيتعرف على امرأة يسقط من خلال علاقته الجنسية بها علاقة الشرق والغرب، غير أن بطل هذه الرواية يختلف عن أبطال الروايات السابقة، وذلك لكونه يتذكر باستمرار ما فعله المستعمرون الأوروبيون ببلده ولاوطن العربي.

في ضوء هذه الملخصات المبتسرة ندرك أن أبطال هذه الروايات يقصدون الغرب ممثلا في فرنسا وبريطانيا لإرواء ظمأهم العلمي والجنسي في آن واحد، غير أن الجنس يوظف توظيفا رمزيا المقصود به إبراز فحولة وذكورة الشرق، بالمقابل تنعيت الغرب بالأنثوية والخنوع تحت الرغبة الجنسية الكاسحة، لأن النيل من المرأة الغربية ـــ في تصور الروائي العربي ـــ معادل فني وظف توظيفا رمزيا للنيل من الغرب برمته، فإذا ما

ارتوت هاته الشخصيات عادت إلى أوطانها لتنسجم مع المجتمع الذي نشأت فيه تحارب الجهل والتخلف.

أما رواية عصفور من الشرق " و قصة " قنديل أم هاشم " فتتفق في عدة نقاط أهمها:

رمزيـــة الولي الصالح

تتجلى رمزية "الولاية في رواية عصفور من الشرق، وقصة "قنديل أم هاشم" في ضريح السيدة زينب رضي الله عنها، و تبرز أكثر عند توفيق الحكيم الذي صدر روايته بقوله (إلى حاميتي الطاهرة السيدة زينب) [9]. و تتكرر لفظة السيدة زينب على مسار الرواية ثمان مرات.

وحين يعمد توفيق الحكيم إلى إبراز الأجواء الروحية لكنيسة " سان جرمان "ساردا الطقوس الكنسية التي يمارسها النصاري، وما يتبع ذلك من مراسيم العزاء قبل دفن الميت، يستعيد الشعور بالرهبة، والخشوع الذي يغشاه، وهو يتعتب ضريح السيدة زينب بالقاهرة يقول علي لسان الراوي:

"هنا أيضا عين الخشوع وعين الشعور، الذي يهز نفسه كلما دخل في القاهرة مسجد السيدة زينب " [10]

ثم يقارن بين هذا السكون وذلك السكون الجاثم علي ضريح" السيدة زينب" فيخاطب نفسه قائلا: "...عين السكون، وعين الظلام في الأركان ، وعين النور الضئيل الهائم كالأرواح في جو المكان .. إن بيت الله هو بيت الله في كل مكان وفي كل زمان " [11].

وعندما يلوم صديقه "أندري" بسبب توريطه في هذا الجو الروحي الذي لم يعتد عليه، إذ لم يشعره بالطقوس المعتادة عند النصارى، يجيبه آندري و فمه يفتر عن ابتسامة هازئة وهو يخاطبه(...أيها العصفور الشرقي.. تعد نفسك لدخول الكنيسة ما معنى هذا ؟ إنا ندخلها كما ندخل القهوة.. أي فرق ؟؟؟ هناك محل عام، وهنا محل عام .. هناك الأرغن وهنا الأوركسترا..) [12].

الأمر الذي يجعل محسن بطل الرواية وهو نفسه الروائي يستنكر هذا الاستخفاف بالمقدسات ويهمس مخاطبا نفسه (بل هناك السماء.. وليس من السهل على النفس الصعود في كل لحظة..)[13].

ولذلك نلفيه يخص الفصلين التاسع عشر و العشرين من خلال حوار مفتعل مع صديقه الروسي " إيفان " يطرح فيه آراءه حول مادية الغرب، وروحانية الشرق، تلك الروحانية التي تجعل المرء ينسجم مع مشاعره وآفاق إيمانه، في حين يبقى إيمان الرجل الغربي بالمادة حبيس نزواته الحياتية الفانية، وحتى روحانية الغرب لم تعد بتلك القوة والوهج الذي عاشه المسيحيون الأوائل في عصر الشهداء، وهو الطرح الذي انتصر له الكاتب وجعله أمنية يطلبها صديقه المادي بعد أن كفر بالمادية الغربية وما فيها من زيف وافتعال، فتهافتت أمام صحوته الروحانية تلك الشعارات التي تبناها محبو "ماركس " فتسقط دفعة واحدة و لايبقى أمامه غير الرغبة في مغادرة الغرب برمته والرحيل إلى الشرق حيث الصفاء والاطمئنان.

يقول " إيفان" و قد شعر بقرب أجله: (دعني، أيها الشاب ، سنذهب إلى الشرق، أريد أن أرى جبل الزيتون ، وأن أشرب من ماء النيل وماء الفرات وماء زمزم..)[14]. وهي الصورة التي ارتسمت في مخياله حين شعر ببرودة الموت تسري في عظامه، وفي ذلك شعور عميق بالتطهر من أدران المادية الغربية التي اكتشف زيفها وعدم جدواها.

الانتصار إلى الشرق نلمسه كذلك في قصة " قنديل أم هاشم" التي تمثل الاستفاقة من الظلال والغي بعد أن أقدم الدكتور إسماعيل بطل القصة على تكسير "قنديل أم هاشم " الذي يحمل رمزية الإيمان والفطرة فقد رأى أمه تقطر في عيني ابنة عمته " فاطمة النبوية " قطرات من زيت جلبته من قنديل ضريح " السيدة زينب"، فيقدم في لحظة غضب على تكسير القنديل، و كأنه بهذا الفعل يقصد إلى تحطيم الخرافة و الجهل لكنه يشعر في داخله بتأنيب الضمير على الرغم من علمه كطبيب عيون مختص بأن تلك القطرات قد تطفأ نور بصر ابن عمته، فوظف في البدء

مهاراته الطبية التي جلبها من جامعات بريطانيا لكنه عجز عن استطبابها، وحين آمن بذلك السر الذي يؤمن به أهله عاد البصر إلى فاطمة.

وهكذا يتضح طرح" يحيا حقي" المتمثل في ضرورة الجمع بين الإيمان والعلم، فالإيمان وحده لا يكفي، كما أن العلم وحده لا يكفي، بخلاف الثقافة الغربية التي لا تؤمن سوى بالعلم وحده.

ولذلك يقول الراوي في سياق تمرير هذا الطرح بعد أن اطمأن إسماعيل إلى عدم التخلي عن تلك الأساليب التقليدية المستمدة من الإيمان المفعم بأمل الشفاء أن إسماعيل صار (المنقذ الجديد يؤدي دوره الطبي في شفاء الفقراء والبائسين بأساليب تقترب من المعجزة الخارقة، وكم من عملية شاقة نجحت على يديه بوسائل لو رآها طبيب أوروبا لشهق عجبا... اعتمد على الله ثم على علمه و يديه، فبارك الله له في عمله وفي يديه) [15].

ومهما سجلنا من ملاحظات نقدية حول إقحام رأي الكاتبين في هذين العملين بتعسف وفجاجة فإن فكرة الصراع بين الشرق والغرب واضحة الجلاء.

ففي رواية "عصفور من الشرق" تتبدد تلك الصورة المثلى للغرب التي انبهر بها محسن إزاء المدنية الأوروبية وفنونها الراقية وثقافتها المتألقة، في أيامه الأولى لزيارة باريس، حيث يعبر في مشهد من مشاهد الرواية عن عظمة الحضارة الأوربية مبديا إعجابه بمظاهرها المادية الراقية. يقول وقد توزع بصره في أنحاء مسرح "الأبرا" البارزة تحت عناقيد الأضواء الساطعة:(أية عظمة, وأي ثراء يشعران بالدوار؟..وأي أنوار؟.. عندئذ أدرك من فوره معنى مجسما لكلمة " الحضارة الغربية" التي بسطت جناحيها على العالم..) [16].

لكن سرعان ما تهتز هذه الصورة التي شكلها عن الحضارة الغربية بعد أن يكتشف أن كل ذلك مجرد بخار لا يعدو أسبوعين مليئين باللهو واللذة مع حسناء تدعى "سوزي".

وفي قصة " قنديل أم هاشم " تتذاوب تلك المهارات العلمية المنعزلة عن الجذور الأولى لمنبت الإنسان ، إذ (أن إسماعيل لا يمكنه أن يؤمن بقدرة الزيت على الشفاء دون أن يخالف مبادئ الطب الذي تعلمه، ولا يمكنه كذلك أن يتخذ من الزيت وسيلة لاكتساب ثقة مريضته دون أن يكون ذلك إرتدادا عن الدلالة الروحانية للحظة الاستنارة التي جاءته) [17].

فالعملان يطرحان مسألة الأصالة والموروثات السلوكية والعقدية، وما لها من تأثير في حياة المرء إذ أن الإنسان لا يمكن أن ينسجم إلا داخل تراث معين.

إذ يستحيل أن يحافظ على مقومات شخصيته المكتسبة من طبيعة وخصوصية مجتمعه الذي نشأ وترعرع فيه، وفي الوقت ذاته ينسجم مع الثقافة الجديدة المكتسبة دون أن ينتصر لجوهر ثقافته الأصلية. إن قضية الصراع بين الحضارتين الشرقية والغربية ظل الهاجس المركزي الذي أرق المفكر والفنان العربي وقد كان المفكرون الغربيون يوصفون هذه العلاقة بالتقاطب والتصادم والتضاد حتى تفجرت أحداث 11 سبتمبر، فغيروا من نظرتهم هذه ورأوا أن العلاقة ينبغي أن تنهض على الحوار، وأن لا ضرورة من هذا الصراع، الأمر الذي هيأ المناخات المختلفة السياسية، والثقافية، والاقتصادية لتصير مسرحا للتقارب, و الحوار المعمق.

ومسألة الحنين والانتصار إلى عمق الحضارة الشرقية ترصدها رواية الطيب صالح " موسم الهجرة إلى الشمال " في صورة تضاد بين الشرق و الغرب، وذلك عندما يعمد إلى إضفاء بعض الخصائص الغامضة على شخصية جد الراوي لدرجة تقربه من الولي الصالح، يسرد ذلك على لسان الراوي فيقول :

(وتمهلت عند باب الغرفة وأنا أستمرئ ذلك الإحساس العذب الذي يسبق لحظة لقائي مع جدي كلما عدت من السفر ,إحساس صاف بالعجب من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال موجودا أصلا على ظهر الأرض وحين أعانقه أستنشق رائحته الفريدة التي هي خليط من رائحة الضريح الكبير ورائحة الطفل الرضيع). [18]

فالدلالة الرمزية واضحة التمثيل في المقابلة بين أفكار " سوزي " الغربية و"محسن" الشرقي وأفكار "آندري" من جهة ثانية في رواية عصفور من الشرق، فعندما يطلب محسن من صديقته "آندري" اختيار هدية تليق بقيمة معشوقته" سوزي" يشير إليه "آندري" يكل بساطة باقة زهر، أو قارورة عطر" هوبيجان"، لكن " محسن صاحب الأفكار الشرقية المفهمة في المثالية يستنكر ذلك، و يجيب (لا زهر، ولا عطر، إنها أعظم قدرا عندي، وأجل خطرا أن أقدم لها شيئا، أو أن أوجه إليها كلاما..) [19]، حينها بدا العجب على وجه الفرنسي, و أدهشه هذا الرد الموغل في المثالية فقال:

(تلك و لا شك فلسفة شرقية ...) [20].

كما يتجلى هذا التوظيف الرمزي كذلك في التقاطب الفكري بين "إسماعيل" الشرقي" وماري "الغربية في نظرتها المتباينة حول الحب والزواج وقضايا الحياة .

إن المثقف الغربي قد ألفى نفسه في مرحلة من المراحل ممزقا بين اختيارين:

— بين التمسك بالحضارة الشرقية وما تحمله من قيم التشبث بالأصول والجذور على ما فيها من مظاهر الجهل والتخلف والأمية، أو الارتماء في أحضان الحضارة الغربية وما يتبع ذلك من تفتح ومادية وممارسة الحرية على أوسع نطاق.

وعلي مسار الأعمال الأربعة المشار إليها في هذه الورقة نلمس من قبل المثقف العربي(تجسيدا واعيا لموقف التردد بين الحضارتين,فالشرق في وجدانه غائر حتى الجذور التي تمد قلبه بشرايين الحياة والغرب في ذهنه ماثل حتى النخاع فهو الذى يمد عقله بأسباب الوجود) [21].

وبين القلب والعقل يشتد التجاذب في معادلة تقاطبية هي أصل وجوهر الصراع بين الشرق والغرب.

الهوامش

[i] إدوارد سعيد / الاستشراق.ت.كمال أبو ديب.مؤسسة الأبحاث العربية.ط2.بيروت 1984. ص 101.

[ii] *Dictionnaire encyclopédique Larousse*, Paris, 1960, p. 446.

[3] قاسم السامرائي/ الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية.دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع.الرياض.1403هـ .ص 107.

[4] ـــ ينظر/ محمد محمد حسيني / الإسلام و الحضارة الغربية. دار الإرشاد.بيروت 1969 ص 11

[5] أنظر / ادوارد سعيد – الإستشراق ص 6.

[7] ـــ قنديل أم هاشم مجموعة قصصية إضافة إلى قصة أم هاشم التي احتلت نصف المجموعة , وحملت عنوان المجموعة كلها.

[8] ـــ مصطفى بدوي / ضمن مختارات من دراسات ادب يحي حقي " سبعون شمعة في حياة يحي حقي", الهيئة المصرية العامة للكتاب.1975.ص 188.

[9] ـــ عصفور من الشرق. الشركة العالمية للكتاب بيروت. سلسلة مكتبة توفيق الحكيم الشعبية ط 1991,4

[10] ـــ المصدر نفسه,ص 10.

[11] ـــ نفسه ص 10

[12] ـــ نفسه ص 15

[13] ـــ نفسه ص ن

[14] ـــ السابق .ص 171

[15] ـــ يحي حقي / قنديل أم هاشم.دار المعارف.مصر 1989.ص 57.

[16] ـــ عصفور من الشرق..ص 22.

[17] ـــ مصطفى بدوي ضمن سبعون شمعة في حياة يحي حقي .مختارات من دراسات أدب يحي حقي. إعداد و تقديم يوسف الشاروني المكتبة العربية القاهرة 1974 ص 190.

[18] ـــ الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال, ص 77.

[19] ـــ عصفور من الشرق,ص 49.

[20] ـــ نفسه ص 50.

[21] - عالي شكري / ثورة المعترل .دراسة في أدب توفيق الحكيم دار الأفاق الجديدة بيروت.ط 3. 1982. ص 144